الإستكبار ومفهومه في الواقع الدولي المعاصر

الدكتور عبد الرحيم علي محمد إبراهيم

مدير جامعة أفريقيا العالمية / الخرطوم. السودان

لقد كان من خصائص عبارات الإمام الخميني أنها واضحة وصريحة وقوية الدلالة على المراد، وذلك دليل على وضوح الرؤية عنده، وعلى قدرة لديه هائلة في الغوص العميق لاستكناه جوهر المشكلات المعقدة والتخلص من ملايين الحقائق التفصيلية التي تربك أكثر المفكرين بتشابكها وتعارض اتجاهاتها، فيتعذر عليهم رؤية الأصل وتمييز الأهم من المهم، وينتج عن ذلك اختلاف الرؤى وتعدد مدارس التحليل والتشخيص، لا سيما في المشكلات السياسية والدولية الكبرى. لكن الخميني كان ملهماً في تبسيط القضايا المعقدة حتى يراها أبسط الناس، ونافذ البصيرة بحيث يرى جوهر المشكلة وأصل أصولها دون أن تحجبه التفصيلات. وإن تلك القدرة لهي شرط من شروط التجديد، وتلك خاصية هي من خصائص المجددين.

إن عبارة الإستكبار العالمي ومثلها عبارة المستضعفين، والمقابلة بينهم وبين المستكبرين لهي عبارة بسيطة مأخوذة من آيات القرآن الكريم، وقبل أن يستخدمها الإمام في وصف الواقع الدولي المعقد لم يكن يخطر ببال القارئ إلا أنها وصف للملأ من قوم فرعون أو قوم شعيب الذين استكبروا كما في آيات سورة الأعراف:

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون، قال الذين استكبروا إنّا بالذي آمنتم به كافرون﴾ ومثلها في سورة سبأ (٣١ - ٣٣).

ولكن استخدام الإمام الخميني لهذا المصطلح القرآني أحياه وأعطاه حيوية

جديدة في وصف حقائق عصرنا، وبدا المصطلح لا كأنه صفة تاريخية انصرمت لطائفتين تاريخيتين، بل هو وصف انقسام تاريخي بين نوعين من الناس يتكرر وجودهم في المجتمعات عبر التاريخ.

لماذا كان هذا الوصف مناسباً للواقع الدولي المعاصر؟

بعد الحرب العالمية الثانية خرج الحلفاء الغربيون بقيادة أميركا منتصرين نصراً نهائياً، وأقاموا المنظمة الدولية الأمم المتحدة لتعبّر بقوانينها وأجهزتها عن واقع الانتصار المطلق، فأعطى حق النقض (الفيتو) للدول الخمس الأقوى، وقسمت الثروات والامتيازات وفق اتفاقيات دولية تعبر عن واقع القوة التي خرجوا بها. ولا تزال الدول التي انهزمت في الحرب تدفع تعويضات مالية كبيرة هي أشبه بالجزية تعبيراً عن الخضوع والإستسلام، كما أن مناهج التعليم والإعلام قد رسمت بحيث تؤكد الإعتذار في البلاد المنهزمة، وترسخ لدى أجيالها فكرة أنها اعتدت وخسرت.

أما بقية العالم الفقير، فقد كان أصلاً منذ أوائل القرن مستعمراً أي مملوكاً بواسطة الدول الغنية (المستكبرة) وخاضت بعض الشعوب المستعمَرة الحرب مع المستعمرين لقاء أجور زهيدة ولم يقسم لها من الغنيمة شيء!

هذا الواقع المأساوي لا يزال يتطور في اتجاه مزيد من السيطرة، ومزيد من الإستغلال رغم استبدال شكل الإستعمار المباشر بأشكال أخرى من السيطرة المباشرة وغير المباشرة.

عندما بدأ الخميني ثورته، كان الواقع في الشرق الأوسط كله يعبر عن حالة من اليأس حيث كانت إسرائيل قد فرضت سيطرتها وبدأت تتوسع على حساب جيرانها، وهي تتمتع بتأييد الولايات المتحدة وتلقى مساعدة وترحيباً في كثير من الدول الإسلامية التي كانت أفلاكاً للولايات المتحدة.

وجاء الخميني رحمه الله ليصرخ بأعلى صوت في وجه هذه الأوضاع المؤلمة، وامتلأت الدنيا باحتجاجاته الصريحة على نهب ثروات الشعوب، وعلى إفقار المواطنين وإذلالهم من أجل أن تستمتع حفنة من أولياء الشيطان، وعلى الحملة

الثقافية الواسعة التي هدفت إلى قتل روح الشباب المعنوية وإلهائه عن الأمور الجادة وعن المطالبة بحقوق الأمة بأنواع المغريات والشهوات.

عندما ظهر الإمام الخميني لم يكن الوعي بهذه المظالم الإقتصادية غائباً، فقد كانت المدارس الإشتراكية في العالم الإسلامي تعبر بطرق مختلفة عن فكر ثوري مستمد من الماركسية والتصنيف الطبقي للمجتمعات الإنسانية، وكان الإشتراكيون في نشاط ملحوظ في إيران والعراق وسوريا والسودان وكذلك في مصر وكثير من بلاد العالم الإسلامي.

وكانت الحركات الوطنية القومية نشطة في مقاومة الإستعمار وأنواع التدخل الأجنبي، فظهرت القومية العربية في مصر والشام، وبرزت أنواع الوطنيات في إيران وآسيا، واستمدت كلها من الفكر القومي الذي برز مع الثقافة الأوروبية.

لكن الإمام الخميني تميز في ثورته بنظرة جديدة إلى الواقع الدولي. تميزت نظرته بالشمول، فلم يكن يرى المظالم الإقتصادية بمعزل عن الواقع الثقافي الذي تميز بالإستتباع وعقدة النقص. ولم يكن الخميني يرى المشكلة من منظور إيراني وطني بحت، بل نظر إلى الواقع الدولي نظرة كلية لا ينفصل فيها واقع إيران عن واقع العالم الإسلامي الكبير، وجاءت أقواله موجهة لا إلى الإيرانيين وحدهم ولكن إلي جمهور المستضعفين.

كذلك، فإن الفكر السياسي الذي ساد المنطقة كان أسيراً لوجود قطبين متنافسين هما حلف الأطلسي، وغريمه الإتحاد السوفياتي، وكان زعماء الوطنية يجتهدون في إيجاد مساحة للمناورة بين القطبين ويتنامى نجاحهم السياسي في الإستفادة من هذا التناقض الظاهري.

وكانت رؤية الخميني كلية وملهمة جداً ،حيث استبق سقوط الإتحاد السوفياتي، كأنه ألهم بالمستقبل، فلم يلق بالاً للتناقضات الظاهرية بل تجاوزها إلى اعتبار العالم منقسماً إلى أمم مستكبرة يقودها شيطان أكبر، وأمم أخرى مستضعفة. ولذلك تلخصت رؤيته في خلاص هذه الأمم في معادلة بسيطة وهي أن

تنهض هذه الأمم وتمنع الأقوياء من استغلالها وإذلالها، ولا تعتمد في ذلك على أي عون دولي مهما كان، بل على الإيمان بالله وقبول التضحيات مهما كانت جسيمة والثقة بالنفس وبقدرات الشعوب.

قال مرة في لقاء خاص: «من الممكن القضاء على التبعية العسكرية خلال شهر أو بضعة أشهر. وهكذا، فإن التبعية الإقتصادية يمكن تلافيها. إلا أن القضاء على التبعية الروحية والإنسانية صعب جداً. إن هذه التبعية الروحية أسوأ وأقبح من كل شيء».

لقد كانت نظرة الإمام الخميني ثاقبة، لأن السنوات العشرين التي مضت منذ قيام الثورة دلت على كثير من الحقائق الجديدة:

أولاً: سقط الإتحاد السوفياتي وورثه الغرب كقوة أحادية لا موازن لها، ولم يكن عجيباً أن أكثر اليساريين والشيوعيين تحولوا إلى الولاء للغرب وسقطت كل شعاراتهم القديمة.

ثانياً: تكشفت مظاهر السيطرة العالمية عن وجوه جديدة تعدت الهيمنة الإقتصادية، والإخضاع العسكري، إلى محاولة لفرض أحادية ثقافية تحميها قوانين دولية، وما المؤتمرات المتعددة حول الإسكان والمرأة والأسرة إلا مظاهر أولية من التفكير الغربي المشحون بمركب الإستعلاء والهادف إلى محو شخصية الأمم كلها، خاصة الإسلامية، وإحلال قيم الثقافة الغربية في جوانب الحياة المختلفة.

لقد شهد العالم أمبراطوريات متعددة، وكانت الأمبراطوريات دائماً قوة تستتبع وتستلحق إلى المركز الواحد أطرافاً من العالم تغذي المركز بالجنود والمال وتستمد منه الشرعية. وظل الخروج على الأمبراطورية (أياً كانت) يعاقب بعقوبات صارمة، فتجرد الجيوش وتغزى البلاد المتمردة لتأكيد إخضاعها وإقامة أمراء موالين في الأقاليم المختلفة.

لكن الوجه المعاصر لنظام الأمبراطورية هو العولمة والشرعية الدولية، المستمدة من القوة الإقتصادية والعسكرية، وتقوم على حماية هذا النظام العالمي الجديد

مؤسسات دولية، وأجهزة إعلامية وثقافية ضخمة، ويعتمد النظام على التخويف بالتجويع وبالمحاصرة وبالتهديد العسكري في كثير من الأحيان.

لقد كانت نظرية الإمام الخميني بسيطة ومباشرة، تعتمد على الخروج الكامل على فلسفة الغرب.

ثالثاً: لقد ثبت في تجربة السنوات الماضية أن الإعتماد على الغرب والتحالف معه من أجل الحماية أو التقدم لم تلق منه الدول المتحالفة إلا وبالاً، فقد افتقرت دول الخليج ونهبت ثرواتها، واستلبت أرصدتها طوعاً وكرهاً. وكذلك، فإن الدول التي استعانت على ثورة الخميني بالتأييد الغربي والمساعدات الدولية عاد الغرب فحطم تقدمها العلمي ودمر أسلحتها التي جمعتها. وخرجت إيران التي كانت تواجه تحت قيادة الخميني كل القوى الدولية ويحاربها جيرانها، عادت أقوى دول المنطقة وأولاها بالاحترام.

ومن هنا نفهم قول الإمام الخميني في وصيته:

«وأقول لكم يا إخوتي في الإيمان: لو أننا فنينا عن ظهر البسيطة باليد الآثمة الأميركية والسوفياتية، ولاقينا ربنا بدم قانٍ لقاءً مشرفاً، لكان ذلك أفضل من أن تكون لنا حياة مترفة مرفهة تحت راية الجيش الأحمر والأسود الغربي.

وهذه كانت سيرة الأنبياء العظام وأئمة المسلمين وأعلام الدين المبين ويجب أن نقتدي بها».

«يجب أن يسودنا الاعتقاد بأن أمة من الأمم تستطيع أن تعيش متحررة من التبعيات إن أرادت ذلك. القوى المتجبرة العالمية لا تستطيع أن تفرض على شعب شيئاً يخالف معتقداته. خذوا العبرة من أفغانستان...».

رابعاً: لقد ثبت أن ما وعد به الإمام الخميني صحيح، وأن الشعب إذا ما توجه إلى الإبتكار والتصنيع معتمداً على الله فإنه يستطيع أن يستغني عن التبعية والإستجداء. فها هي إيران اليوم تنتج كل ما تحتاج إليه من أنواع الصناعة، وها هي تكسب الإحترام الدولي في التصنيع الحربي وغيره من المجالات، حيث فازت

بالميداليات في مهرجانات السينما وفي مجال الرياضة حيث هزم فريقها الفريق الأميركي.

خامساً: إن انقسام العالم إلى مستكبرين ومستضعفين قد ظهرت معالمه وخطوطه أكثر من ذي قبل، ولم يعد خافياً أنه حتى اليهود في إسرائيل ينقسمون إلى مستضعفين ومستكبرين، وفي ظل هذا الوضع العالمي الذي يزيد فيه القوي قوة بحكم القوانين التي يضعها لصلحته، ويزيد الضعيف ضعفاً بحكم خضوعه لعدوه، فإن صيحة الإمام الخميني تصبح المخرج الأوحد للشعوب، حيث يقول:

«أيها المسلمون في أرجاء العالم، أيها المستضعفون الرازحون تحت سلطة الظالمين، انهضوا وتعاضدوا متحدين، ولا تهابوا ضجيج الطواغيت، فهذا القرن بإذن الله القادر قرن غلبة المستضعفين على المستكبرين وغلبة الحق على الباطل...».